OPEN ACCESS
Journal of Arabic Research (AIOU)
jar.aiou.edu.pk
iri.aiou.edu.pk

تهذيب النفس الإنسانية في ضوء القصائد الشعرية للشيخ محمد يارفريدي

Narrative Tendency in Hijazi Travelodge (A Descriptive Study)

حافظة رفعت تجلي

باحثة بمرحلة الدكتوراه، قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، بهاولبور

د. الحافظ أحمد علي

الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، بهاولبور

ABSTRACT

Allah created humans and for his guidance he bestowed upon Prophets and Rasool the provision of light of guidance so that humans and jins follow the path of righteousness. In order to get rid of moral abuses such as body and souls terrible deeds Polytheism and hypocrisy. Islamic Shariyah commands about outwear sacredness, Similarly heart's sacredness which centers upon soul and deeds. By reading Quranic verses along with its translation and explanation, the beginning of self-purification, implements in our practical life, after which the disgraceful and ugly deeds of nafs should be avoided. Because of evils of soul and body different soul of disease occurs, which take a long time cured , that is every human's responsibility . Deep faith between a Muslim with his creator can be developed after self-purification attainment in the destined life. Besides, a relationship of selfless morality and compassion can be build up among with people of surrounding society. My topic relates to such religious and literary personality whose aim of life was confined to betterment of society named Muhammad Yar Afridi ,born in GarhiIkhtiyaar Khan , district RahimYarKhan in 1881; who bore many journeys and hardships for propagation of religion Islam . He got high fame in world of Sufism and arranged a lot spiritual practice and benefited many people through poetry and practice regarding self-purification. Through his divans, I took critical analysis on self-purification.

Keywords: guidance, righteousness, self-purification**,** spiritual practice, divans.

المراد بالتزكية التطهير والتنمية , وتكون تزكية النفس الإنسانية بتطهيرها من الشرك وتحقيقها بالتوحيد وتخلقها بأسماء الله الحسنى مع العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى , ومعنى زكاها: رباها وجعل

شهواتها مضبوطة ومحكمة تستطيع تحكيم العقل ومسايرة الطباع وفق منهج الله وإرادته كما قال الله عزوجل: (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة)(1) فهذه الآية توضح أن الرسالة السماوية تقوم على ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: تلاوة آيات الحق الذي لا باطل فيه الوحي الذي لا ريب فيه.

العنصر الثاني: التزكية وهي تطهير النفس وتنقيتها من القبائح والرذائل العقدية كالشرك والنفاق والشقاق أو الرذائل الأخلاقية كالبخل والحسد والحقد والظلم والكذب واتصاف النفس بالفضائل ومحاسن الأخلاق والعادات.

العنصر الثالث: التعليم ومعنى ذلك تعليم الحقائق التي تنظم المجتمع والتي تجعل الناس يعرفون طبيعة الدنيا التي يعيشون فيها ثم طبيعة الدار التي سوف ينتقلون إليها فإذا تركوا الدنيا بعد حياة زكية وبصيرة واعية فإنهم يستقبلون الآخرة ولهم فيها مكان رحب كما يصف الله جل شانه حالهم في قوله: (الذين توفاهم الملآئكة طيبيين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون).(2)

فكما تكون الأدران والأوساخ سببا للأمراض الجسمية وهكذا تتولد الأمراض النفسية من فساد الأخلاق والمعاملات, ولذا يلزم دوما العمل على تطهير الأخلاق وتزكية النفوس بغية نشوء الأمراض الباطنية التي يصعب علاجها ويطول الأمد في إدراكها لسبب الغفلة والأماني الفارغة, والنفس الزكية هي النفس الطيبة الطاهرة البعيدة عن كل خبث ونقص , ويمكن استنباط الإطار العام للتزكية بأنها: عملية تطهير وتنمية لهدف استبعاد العناصر الموهنة لإنسانية الإنسان , وما ينتج عن هذا الوهن من فساد وتخلف وخسران وتنمية كاملة للعناصر المحققة لإنسانية الإنسان وما ينتج عن هذه التنمية من صلاح وتقدم وفلاح في حياة الأفراد والجماعات , فالتزكية تشمل المعتقدات والقيم والثقافة وأيضا النظم والتطبيقات.(3)

وتكون تزكية القلوب والنفوس في العبادات إذا أديت على وجهها الكامل والمطلوب فعندئذ يتحقق القلب بمعان تكون النفس بها مزكاة ويكون لذلك آثاره وثمراته على الجوارح كلها كاللسان والعين والأذن وبقية الأعضاء , وأظهر ثمرات النفس المزكاة حسن الأدب والمعاملة مع الله ومع الناس- مع الله قياما بحقوقه بما في ذلك بذل النفس جهادا في سبيله ومع الناس على حسب الدائرة وعلى مقتضى المقام وعلى ضوء التكليف الرباني, ولذا يكرس الإسلام جهودا ضخمة للتغلغل في

أعماق النفس الإنسانية لهدف تهذيبها مما يمهد الطريق للإصلاح العام وهو الضمان الخالد لكل حضارة وتغليب الخير في الحياة.(4)

فكما هو معلوم بديهيا بأنه لا يمكن لأي هدف تحقيقه إلا بعد توفر الوسائل المطلوبة فكذا الأمر لهدف الحصول على تزكية النفس الإنسانية التي يلزم لها في البداية الإقرار بوحدانية الله لأن الشرك من أعظم النجاسات ولذا أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون يقول له : (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى)(5) وبعد التوحيد لله يلزم المداومة للصلاة التي هي الصلة العامودية مع الله تكسب المسلم المناعة والصيانة والتوازن النفسي والنقاء الروحي , ويلي ذلك الصوم الذي يقوم بتربية الإرادة وكبح جماح الأهواء والرغبات النفسية يحصل المسلم من خلاله تزكية شاملة من عوامل الضعف التي توقعه أسيرا بين يدي الشهوات المحرمة, ويشكل الإنفاق في سبيل الله مكانة هامة للحصول على التزكية لأن النفس مجبولة على الشح وهو رذيلة يجب التخلص منها كما قال الله تعالى: (وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى)(6) فالمسلم عندما يدرب نفسه على مخالفة هوى نفسه وما جبلت عليه من الشح والبخل فإنه يتحرر من عبودية المال الطاغية التي هي سبب للشقاء في الدنيا والآخرة, إضافة إلى ذلك عندما يجتمع المسلمون في صعيد واحد لأداء فريضة الحج والعمرة تتحقق بينهم المساواة والوحدة في المشاعر والهدف وتزول من النفوس صفاتها الذميمة وتتخلى عن أمراض الحقد والأنانية والتكبر وتتحرر من وساوس الشيطان ومكايده وتتحصل على الصفاء من أكدار الذنوب فيندحر الشيطان خائبا ويرجع الحجيج طاهرين كيوم ولدتهم أمهاتهم أول مرة, ويلزم للحصول على التزكية تذكر الموت وقصر الأمل لأن المنهمك في لذات الدنيا الفانية يغفل قلبه عن الحق وينغمس في الشهوات والرذائل حتى ينتهي عمره ويوافيه الأجل المحتوم التي من بعدها ينتقل إلى حياة الأسر والدمار والهلاك الأبدي والعياذ بالله.(7)

ولا نجاة للبشرية من الشقاء والبؤس إلا عن طريق التزكية الروحية حيث يمكن لكل إنسان الحصول على السعادة الأبدية فلا يخش غما ولا يشك هما ولا يصيبه القلق ما دام أمره متعلقا بالله — فإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية فإن الايمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره هو ماؤها وغذاؤها وهواؤها وضياؤها كما ورد في قوله تعالى: (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (8)

ونحن عندما نقوم بدارسة منهج الصوفية(9) لتزكية النفس الإنسانية يظهر لنا بأنه يهتم بالجانب الداخلي والباطني الخفي للإسلام حيث أنه القلب النابض للرسالة الإسلامية فإنه لا سبيل إلى رؤيته من الخارج ولكنه كالقلب الذي هو مصدر الحياة والمركز الذي ينظم كيان الإسلام كله من الداخل والشريعة هي الناموس الإلهي وبحكم قبولها يصبح الإنسان مسلما وكما أنه لا بد لمن يود صعود الجبل طريقة يستطيع بها الصعود وهكذا يلزم تحقيق التوازن فيمن يسلك طريقة الصوفية باتباع أوامر الشرع ونواهيه إذ أن الشريعة بدون الطريقة كالجسد بلا روح وإذا فقدت الطريقة الشريعة فقدت درعها الواقية , فالطريقة الروحية هي التي تمكن الإنسان من أن ينفذ إلى ما وراء القيود البشرية ويقترب من الله وهي تؤدي بصاحبها إلى الولاية الروحية.(10)

وتتلخص الفضائل الروحية في أربعة أمور:

أولهما: التواضع لله وإدراك العجز أمام جبروت الله وكبريائه.

ثانيهما: الإحسان وهو اقتران العمل الصالح بالخشوع لله سبحانه وتعالى.

ثالثهما: الإخلاص أو الصدق وهي الفضيلة التي بواسطتها يحقق الإنسان التوحيد ويعيش دائما في الحضرة الإلهية.

رابعهما: الفناء ويتمثل في فناء القلب عن إرادة ما سوى الله عزوجل والتوكل عليه وعبادته وسلامة القلب من الاعتقادات الفاسدة والانشغال بالقرب الإلهي والتصعيد الوجداني واستمداد الفيض والنور من الله عزوجل.(11)

أما عن مراحل تزكية النفس الإنسانية فهي كالآتي:

المرحلة الأولى: تطهير اللباس من النجاسة وذلك يستلزم تطهير الروح لأن الروح الطيبة النقية لا يمكنها العيش في الجسم الخرب واللبس النجس فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن تركيزه على النظافة والطهارة الظاهرية فحسب وإنما تشمل الطهارة الداخلية أيضا في العقائد والسلوكيات الباطنية والظاهرية.

المرحلة الثانية: الفصل بين تزكية النفس والرهبانية التي تعتقد بالوساخة والقذارة سبيلا للارتقاء الروحي لأن الفطرة الإنسانية لا تميل إلى ذلك والشريعة الإسلامية تحث على الطهارة والاهتمام باللباس الظاهري مع التخلص من الأمور التي تنفرها النفس.

المرحلة الثالثة: الابتعاد عن العيوب الأخلاقية في اللباس بالتخلص من الكبر والغرور والرياء , لأن المراد بالارتقاء الروحي والتزكية التمكن من السيطرة على الأهواء وتسخير الجسم وجميع طاقاته بالوجه الشرعي المطلوب منها , ويلزم للإنسان الثبات في مواجهة المصائب والبلايا ومخالفة النهج الشيطاني وبذلك يمكنه الحصول على الارتقاء الروحي بالايمان الراسخ في القلب والطاعة لله عزوجل وملازمة التقوى والمحاسبة للذات واليقين بالجزاء والعقاب بين يدي الله العلي القدير.(12)

وبذلك يمكن القول بأن سعادة الإنسان وفلاحه في الدنيا والآخرة لا يمكنها أن تتحقق عن طريق الإشباع المادي أو التقدم التكنولوجي أو تطور العلوم والعمران ووجود وسائل الراحة والاستمتاع وحدها, ولذا يلزم للمسلم الرجوع إلى كتاب الله لكي يمكنه الشعور بالطمأنينة والحب والإحساس بجمال الحياة ويزول عنه القلق واليأس والخوف والوساوس والأوهام , وبعدما يحصل على ذلك فإنه سيبتسم للحياة وإن كشرت عن أنيابها ويسخر من الأحداث وإن برقت ورعدت وهي تتمثل في سكينة النفس والرضى والصبر والقناعة وشكر النعم وحب القرآن الكريم والخير ولقاء الله في الآخرة , والبداية الحقيقية للحصول على السعادة هي تزكية النفس الإنسانية من رذائل الفسق والفجور ولذا كان الهدف الأساسي من إرسال الرسل والأنبياء إرشاد الناس إلى الصراط المستقيم ولما أدرك العلماء والمصلحون عواقب الاعراض عن المنهج الرباني قاموا بالالتزام بتهذيب نفوسهم وفق ما أمرهم الله في كتابه واجتهدوا في تطبيق سنة نبيهم الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ومن بعده خلفاء نبيهم الراشدون والصحابه الكرام , ومن بين المصلحين في شبه القارة الهندية قمت باختيار شخصية دينية من شبه القارة الهندية ظهرت عند غروب شمس الخلافة الإسلامية وتسلط الكيان الانجليزي وسط تنازع الحضارات المتعددة ومحاولات القضاء على الهوية والدين الإسلامي من جذوره الأصيلة فتحمل رجال لم يلهيهم التسلط والاستعمار والفتن والحروب عن رفع رآية الإسلام والجهاد من أجله فكان من بينهم الشيخ محمد يار فريدي الذي ولد سنة 1300 للهجرة الموافق سنة 1881 للميلاد في قرية (كرهي اختيار خان) بمنطقة رحيم يار خان في إقليم بنجاب باكستان(13) , وكان والده الشيخ عبدالكريم صاحب شخصية دينية بارعة له شغف بالتصوف والتدين ولذا اهتم بتربية ابنه الوحيد لكي يتمكن تحمل أعباء القيادة الدينية وتبليغ الدين الإسلامي الحنيف في مستقبل حياته حيث قام بتحفيظه القرآن الكريم وتلقينه العلوم الدينية والروحية والأدبية من اللغة العربية والفارسية والأردية والسرائيكية من العلماء المعاصرين والمعاهد الدينية إضافة للتربية الروحية بالمكوث والاستصحاب للمصلحين لعشرات السنين ,

وتجول الشيخ خواجه محمد يار فريدي مدن الهند لغرض تبليغ الدين الإسلامي ثم سافر إلى الديار المقدسة لإداء فريضة الحج والعمرة ووافاه الأجل المحتوم في الرابع عشر من شهر رجب من سنة 1367للهجرة الموافق 1948 للميلاد في مدينة لاهور .(14)

كان الشيخ من علماء الصوفية الجيدين صاحب خبرة في القول والبيان وصاحب قدوة في العمل والاعتقاد وصاحب علم ودراية وتعمق في العلوم والمعارف مع التواضع والانكسار والإخلاص في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية والتحمل والصبر للمخالفين له في نظرياته ونهج حياته وسبل تزكية النفوس مراعاة لطبيعة الناس في مجتمعه وقام بتطبيق أساليب التربية الدينية والروحية بالمواعظ والأذكار والنوافل مستخدما وسيلة الشعر المرتبط بالتصوف الذي يتميز بالزهد والعشق الحقيقي وتزكية النفوس من الرذائل والقبائح لهدف النقاء الروحي الذي يترتب عليه الإخلاص في العبادة وقضاء الحياة وفق المنهج الرباني الحكيم, وكان الشيخ محمد يار ممن رفعوا لواء الشعرفي شبه القارة الهندية واستخدمه بكل دقة وإتقان من أجل توصيل الأفكار ونزع الفرقة والبغضاء والعداوات من بين الناس وزرع المحبة والألفة ونشر أواصر الخير بالوعظ الحسن والنصح والجميل والإرشاد البليغ واتخذ من العشق عنوانا لقصائده الشعرية فاصبح كالقمراللامع من بين النجوم الزاخرة واستخدم الشيخ اسلوب البيان الفطري الجذاب بالالفاظ السهلة المتداولة بين الشعب , ونوجز القول بأن الشيخ محمد يار فريدي بالفعل كان فريد عصره من حيث مكانته الدينية والأدبية من بين علماء الصوفية في شبه القارة الهندية ولا يزال الألآف من الناس يتذكرون قصائده الشعرية وخطبه الوعظية لهدف نشر الدين الإسلامي وإصلاح المجتمع وتطهيره من المفاسد الأخلاقية لهدف تزكية النفوس وتهيئتها للقاء الرباني بالاخلاص الكامل والقلب النقي العامر بالعشق الإلهي بكل شفافية ووضوح حيث عندما كان يجتمع الناس من حوله فتمر عليهم الساعات الطوال وهم يستمعون لخطبه ووعظه فتنزل السكينة على القلوب المضطربة وهم ينالون منه الفيوض والبركات وهو ينزع من أفئدتهم الشكوك والشبهات ويزرع فيهم التواضع والانكسار واللين في القول والعمل والأذكار والوظائف اليومية.(15)

وفيما يلي أبرز ملامح تزكية النفس الإنسانية المستنبطة من قصائده الشعرية:

أولا: العشق وهو الموضوع الأساسي للشيخ محمد يار فريدي يتمثل في العشق للذات الإلهية والعشق للنبي محمد صلى الله عليه والعشق للشيخ فهذه هي الأطر الثلاثة التي كانت شخصيته تحوم فيها ومنها تفجرت ينابيع فيوضه الروحانية بعيدا كل البعد عن التكلف والغموض مطبقا التوازن الكامل

بين الاسلوب والمواد فهو عندما يتحدث عن العشق الإلهي فإنه يشير للإخلاص الكامل بالنية والاعتقاد وهو يتمثل في الصفاء الحقيقي البعيد عن شوائب الشرك أوالانحراف عن صرف حقوقه للآخرين, أما عشقه للنبي صلى الله عليه وسلم فهو في صورة الغزل الشعري الذي يشتمل على محاسن البديع والبيان والإشارات البلاغية والاستعارات والرموز ممزوجة بالأفكار الصوفية والحكم والأمثال الشعبية والمشاعر الروحانية اللطيفة , وعشقه لشيخه الخواجه غلام فريد الذي مكث في صحبته سنوات عديدة وحصل منه على سند الإجازة والتفرغ وبعدما توفي الشيخ ارتبط بابنه الشيخ نازك كريم لمدة عشر سنوات مهتما بالتلقي والمصاحبة لنيل الفيوض والبركات(16) ويقول في الصدد :

دل وچ درد هزار مدتاں بيت گئياں ڈکه درد وچ لا چارهاں بے کار زار نزارهاں(17)

والمفهوم العربي للأشعار: القلب ملئ بالاحزان التي مضت عليها السنوات الطوال والجسم قد امتليء بالالآم وأصبح كاهلا عاجزا لسبب الاشتياق القلبي في لقاء المحبوب الذي يتفرع منه مداومة التفكير في لقاءه بعد قضاء الحياة الدنيوية وفق مرضاته وحسب إرشاداته وتوجيهاته الكريمة , واستخدم الشيخ محمد يار فريدي أسلوب الرمز الاستعاري (سسي) للمحبوب الذي كانت قصة حبها متداولة بين أوساط المخاطبين لكي يزداد عنصر الشوق والاهتمام حيث يقول في هذا الصدد :

سسي راه بهليندیں تهك گئ هر دم كانگ اڈيندیں تهك گئ (18)

فالشاعر استخدم الأسلوب الرمزي لقصة حب واقعية يعرف أغلبية سكان المنطقة تفاصيلها لكي يسهل لهم إدراك المقصود من العشق الإلهي بأن حالتهم تلزم أن تكون مشابهة لبطلة القصة التي ظلت طوال حياتها تشتاق للمحبوب وتتمنى اللقاء به, وقد أجبرها شوقها وولعها بالمحبوب على تحمل الصعاب والمشاق من أجل الحصول على مبتغاها ولذا ينصح الشيخ بدوام الطلب للعاشق المهتم بلقاء محبوبه أن يخلص النية والعمل من غير عدم المبالاة بطول الفراق وشدة الكرب وبقدر أهل العزم تأتي العزائم.

ثانيا: توجيه اللوم والتعنيف للنفس لغرض الإصلاح والتزكية الباطنية

يظهر من الدراسة العلمية تأثر صوفية الفرس وشبه القارة الهندية من المسلمين بالقرآن الكريم والدين الإسلامي ولكن بعد تأويلهما تأويلا كبيرا بحيث أدخلوا في مفهومها كثيرا من الفلسفة

والأساطير والقصص الشعبية وهذه كانت طريقتهم لفهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أي بعد أن أخضعوها لآرائهم وظنوا أنهم لها خاضعون, واستخدموا أساليب التربية الخلقية القائمة على التدين والخضوع لما يفرضه الخلق القويم والدين الحنيف, فالأشعار التي أوردوها تحمل التعنيف المباشر القاسي على النفس كما ورد في ديوان الشيخ محمد يار في قصيدته بعنوان (لا تعرض عني يا حبيبي) :

ميں بدكار كميني كتي ازلوں در تيڈے تے ستي لطف كرو هك وار مدتاں بيت گے

النفس الأمارة بالسوء هي التي لا تعرف الراحة ولا السكون وتمضي قدما من غير توقف أو ملل في ابتغاء الشهوات والملذات الدنيوية وهي (القوة البهيمية) يكون الشيطان قائدها وتتدرج في المهالك حتى توصل الإنسان إلى مرحلة أسفل السافلين وأخبث الأخبثين ويكون مصيره مع المردة والملحدين في نار جهنم أبد الآبدين , وسميت هذه النفس بالأمارة لأنها تأمر صاحبها بما تهواه من شهوة ساقطة ونزعة يابضة وظلم وحقد وفخر وما إلى آخره .... فإن أطاعها العبد قادته لكل قبيح ومكروه وهي مستمرة في تزيين المعاصي للإنسان وحثه على ارتكابها ولا يمكن للإنسان التخلص من شرورها ومن مكايدها من غير إعانة الله له وتوفيقه من هذه الناحية .(20)

وقد أدرك علماء الحق والتصوف حقيقة هذه النفس التي لا علاج لها سوى الردع والتوقف عن استجابة مطالب هذه النفس وقمع الشهوات الطاغية بالتدبر والمحاسبة وتوجيه اللوم والعتاب لها لهدف إصلاحها وفقا للمنهج الرباني الحكيم وتنقيتها من العيوب المنحطة والشوائب النجسة حتى تلاقي ربها نقية طاهرة مطمئنة , فالشيخ يوجه اللوم القاسي لنفسه بأنها صاحبة العمل السيئ منحطة فاسدة ولكنها مع ذلك قوية الأمل راجية اللقاء بمحبوبها فهي تنتظر العفو والرحمة بربها, فهو ينصحها بأن تترك المكر والاحتيال واللف والدوران لأننا نعيش في ظل مجتمع ينحط شيئا فشيئا باسم التطور والتجديد ولايتقبل أية قيود دينية أو أخلاقية وقد أطلق فيه الفرد حريته الكاملة لغرائزه وتمادى في هواه ونسي العمل لدار البقاء واتخذ لنفسه مبدأ الهوى والشهوات والانطلاق في دنيا الملذات , فكثرة الذنوب والمعاصي تؤدي إلى قسوة القلوب وهي أعظم عقوبة تنالها النفس وتصبح بذلك أهلا لغضب الله وحلول مقته وانتزاع الرحمة منه, وهي تحب الغفلة وتكره الموعظة والتذكير خشية أن يردعها ذلك عن الاستمرار في مسالك الغي وأهواء الشياطين, وهكذا ترغم النفس على التمادي في الضلالة حتى تنسيه الموت والحساب , فيفتقد العبد لذة الطاعة والعبادة نتيجة الابتعاد عن مصدر النورالإلهي ومصيرهذه القلوب الظلمة والعتمة في الدنيا والآخرة وعلاجها الوحيد هو الدعاء لها بالتزكية وثم المحاولات الجادة

لتخلصها من شرورها ومكايدها وإذا لم يتنبه المسلم في حياته من هذه الناحية فإنه قد يفشل في حصول مطلوبه في الآخرة ويظل في عمارة الدنيا وينشغل عن إصلاح باطنه وتطهيره من الكبر والغرور وزرع الإخلاص في العمل والشوق إلى لقاء المحبوب.(21)

ثالثا: الإعراض عن الدنيا والفناء في الله عزوجل

يولد الإنسان في هذه الدنيا عاري البدن خالي اليدين وبعد قضاء أجله الذي قدر له سيرجع إلى ربه كما ولد أول مرة ولا ينفعه عند لقاء ربه سوى ما قدمه من الأعمال الصالحة فمهما كان غنيا فإن ماله الذي كان يفتخر به في حياته قد انتقل إلى ذويه وأهله وهم فرحون بذلك وأصبحت القصور التى أفنى حياته في عمارتها سكنا لأولئك الذين لم يرهقوا أنفسهم في الحصول عليها وقد انشغل الأولاد بأمور دنياهم فليس لديهم الوقت لتذكر من سبقوهم إلى مرحلة ما بعد هذه الدار الفانية وهذه هي قصة كل إنسان.... ولكن أين الذين يدركون حقيقة هذه الدنيا؟ وأين الذين يهتمون بأمر حياتهم الأبدية؟ والجواب هو (إنما يخشى الله من عباده العلماء)(22) فهم في كل زمان ومكان يرشدون الناس من حولهم بالعمل للآخرة وترك الدنيا قبل أن تنقبض أرواحهم وترفع جنائزهم وتختم صحائفهم وهي خالية من الأعمال الصالحة . والعياذ بالله . ومن المصلحين وفق منهج التصوف في شبه القارة الهندية الشيخ محمد يار فريدي الذي كتب العديد من الأشعار في اللغة الفارسية والأردية والسرائيكية تحمل مفهوم الإعراض عن هموم الدنيا والفناء في الله عزوجل في قصيدته (قد رحل ما كنا نحبهم) :

كيا كرسيں عيش محل كوں جو همارے يار تهے وه چل بسے

اب تو نادانوں كي بستي هے جهاں جو بڑے هوشيار تهے سب چل بسے

دل كو اك دم بهي نهيں ملتان سكوں دل كے جو دلدار تهے سب چل بسے (23)

يتسائل الشيخ عن حكمة تعمير القصور والأبراج الشاهقة عند حضور الأجل المحتوم حيث لا ينفع عندئذ الأموال والمجوهرات والأهل والأصدقاء فإذا كانت هذه النهاية المؤكده لكل إنسان فلماذا كل التكاسل في العبادات والانعراض عن الواجبات والانشغال بملذات الدنيا الفانية التي لا محاله نحن عنها مبعدون وإلى ما بعدها منجرفون ومن ثم يحصل اجتماع الأولين والآخرين في ميدان الحشر أمام رب العالمين ينتظر الكل منا صحيفة عمله وهو حريص على النجاح والفوز بمرضاة خالق العباد والسكن في جنات الفردوس مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين , فبعدما رحل الأحبة أصبح القلب يعيش في قلق دائم حيث لا يهدأ له بال ولا يجنح للراحة والسكون , فالعاقل هو من عرف الحق واتبعه

وقام بتطهير روحه التي منح التصرف بها لمدة معينة ومع مرور الوقت ينتقل الناس من دنياهم الفانية إلى حياتهم الأبدية التي لا كيد فيها ولا حزن ولا مرض فيها ولا نصب ولا زوال فيها ولا موت ويبقى من بعد أهل الحكمة والدين أصحاب الغفلة والغباء ولا تترك الموت حي وإلا تلتقط أنفاسه مهما كانت منزلته وشهرته وفطانته وديانته , ولذا يلزم للمسلم التصديق والتيقن بأن الدنيا ليست بدار قرار وأن الآخرة هي الدار الباقية والدائمة, فويل لمن أهمل حياته الدنوية وانشغل في الحصول على ملذاتها ولم يلتفت لتزكية روحه فإنه لا محالة سيفشل في الحصول على مطلوبه ويظل في عمارة الدنيا متناسيا الموت بعيدا كل البعد عن الشوق في اللقاء بالمحبوب.(24)

ويقول في هذا الصدد:

جو همارے يار تهے وه چل بسے　　جو نكو كردار تهے وه چل بسے

اب تو دل ميں هے فقط خار فراق　　جو گلوں كے هار تهے سب چل بسے (25)

لا محالة أنه من يعيش أكثر من خمسين سنة في هذه الحياة المتقلبة الخالية من الاستقرار والدوام فإن بشاشته ستفنى ويبقى بعد حلو العيش مره وتخونه الأيام حتى لا يبقى شيئا يسره ويتركه أصدقائه الذين كانوا معه يوما ما وقد أدركتهم المنايا بعد نهاية آجالهم المحدودة وأذهبت الرياح والعواصف ذكرياتهم ويبقي الحزن والألم في قلوبنا والموت هي النهائية الحتمية لكل حي وقد كان أصدقائنا مصدر شرف وكرامة وعز وفخر لنا ولكنهم رحلوا عنا , ويستخلص من ذلك أن الشيخ يريد التنبيه للاستعداد للموت وأن الدنيا مصيرها الزوال فكما تركنا من كنا نحبهم ونجالسهم وهذه هي قصة الحياة فيلزم أخذ العبرة بالسابقين قبل أن نصبح بأنفسنا عبرة للآخرين .

رابعا: إخلاص النية لله عزوجل والالتزام بالأعمال الصالحة

البداية الحقيقية لتزكية النفس الإنسانية هي إخلاص النية لله عزوجل وتطهير القلب من الشرك والنفاق وسيئ الأخلاق والمعاملات ثم الإلتزام الحقيقي لكل الأعمال الصالحة التي وردت في القرآن الكريم طبقا للمنهج النبوي الشريف , ولهذا اجتهد فقهاء الأمة الإسلامية على تربية المجتمع الإسلامي على الفضائل الخلقية النابعة من القلب البعيدة كل البعد عن الانحراف والشرك لغرض العيش السلمي الآمن في الأرض ونزع الخلافات والعصبيات الداعية للفساد والظلم والتعدي على حقوق العباد ,وهذه هي خلاصة الجهود التربوية للشيخ محمد يار فريدي ويستدل على ذلك شعره في ديوانه :

كيوں اكهاں يار پريڑے　　شه رگ توں وسدا نيڑے (26)

يتسائل الشيخ عن المحبوب الذي يعشقه وهو يقصد بذلك الذات الإلهية التي هي قريبة للإنسان من حبل الوريد , فعندما يدرك المرء بعين الحقيقة وصلب الإيمان بأن الله قريب منه فإنه لا محالة سيعيش حياة أساسها الإخلاص في النية ومدواومة التفكير في رضى الله عزوجل وحسن الخاتمة من هذه الدار الفانية وتذكر الوقوف في أرض المحشر واللقاء بخالق الكائنات , فلذة اللقاء بالمحبوب تكمل في الاستعداد القلبي عن طريق الإخلاص والاستعداد البدني عن طريق الالتزام بالأعمال الصالحة وتجنب الفسق والفجور والمعاصي والآثام , ويحث الشيخ على التحلي بالصبر لأن المؤمن المخلص عندما يقرر تغيير سير حياته بعدما كان يعيش تبعا لهواه أصبح قلبه مهتما بتطهيره من الشوائب والأدران فعندها يواجه المصاعب ويلزمه الصبر واحتساب الأجر على الله عزوجل , فلا يبالي بالظلم والجفاء وطول السفر والعناء فيلتقي بالصديق المحب والمنافق المخادع والعدو الماكر ومهما كانت الرياح مخالفة لما تشتهيه السفن فإن العاشق الحقيقي المتصف بالاخلاص والعزم المؤكد باللقاء بمحبوبه سيجد مطلوبه يوما ما , ويلزمه من هذه الناحية ترك الرفاهية والعيش الرغد ومجاملة الناس والخوف ضياع المناصب وفوات الرواتب والمصالح مع التركيز التام على الأوراد والأذكار والتسبيحات وأداء الصلوات المفروضة والنافلة وملازمة صحبة الشيخ الولي الكامل لكي يقوم بمراقبة أعماله وإصلاح سريرته ليكون مؤهلا للتزكية الروحية والبدنية.(27)

خامسا: تذكر الموت ومحاسبة النفس ولزوم التوبة

من المعلوم أن مما يبطر النفس ويدفعها إلى الصراعات المشئومة والشهوات المذمومة طول أملها ونسيانها للموت , ولذلك كان مما تعالج به النفس تذكر الموت الذي هو أثر القهر الإلهي وقصر الأمل الذي هو أثر عن تذكر الموت , وبقدر ما يتذكر الإنسان الموت ويقوم بتقصر أمله فإن عكوفه على القيام بحقوق الله أكثر ويكون الإخلاص في عمله أتم , فالمنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت وبذلك يترك محاسبة جميع أعضاء جوارحه وأعماله في ميزان الخير والشر ويعرض النظر والتأمل في الفرائض والنواهي , ويؤدي الإهمال إلى قسوة القلب وغفلته النهائية , والفائدة التي تقتضيها المحاسبة هي معرفة عيوب النفس ومثالبها والزيادة من الخضوع لله والتوبة من الذنوب إضافة إلى المحاولة لتطهير النفس وتربية الضمير لكي يمكن للإنسان قضاء حياته وفق المنهج الرباني القويم , وهدي النبي الكريم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم .(28)

ولهذه الناحية اجتهد الدعاة والوعاظ والعلماء والفقهاء لتأصيل دعائم التربية الإسلامية في جذور المجتمعات الإنسانية فكانوا هم القدوة المثالية لمن حولهم من المريدين والطلبة وجمهور العوام من الناس حيث يحاولون من خلال أقوالهم وأفعالهم نزع حب الدنيا من قلوبهم وأذهانهم وزرع حب الآخرة والاستعداد للحياة من بعد الموت ويقول الشيخ محمد يار فريدي في قصيدته (قل لعالي الشأن) :

شان جلال سے کہو تجه کو جلال کي قسم ميري قبر نه ڈهونڈنا ميري قبر کہيں نہيں

پاوں کے نيچے روند کر ميرا نشاں مٹا ديا پهر هے نشاں کي جستجو عشق ميں کچه اثر نهيں(29)

عندما نقوم بدراسة القصيدة التي ذكرت مطلعها يظهر لنا بأن الشيخ يقول لعالي الشأن مقسما بالذات الإلهية بأنكم لا تبحثوا عن مكان قبري لأن الموت مصير كل حي في هذه الحياة وهو يقصد بذلك التربية الدينية للمريدين الذين كانوا من حوله آنذاك وللقارئين لأشعاره من بعد وفاته لكي يستعدوا في حياتهم المحدودة زمنيا للمكان الذي هو سيكون فيها قرارهم لحياة غير محدودة , ويترتب النعيم والشقاء في تلك الحياة على مدار الأعمال الصالحة المبنية على الإخلاص الرباني والنهج النبوي الكريم , فطوبى لمن استغل حياته الفانية لتعمير حياته الباقية ونجح في الاستعداد للقاء ربه والفوز بجناته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم , فليست هنالك فائدة متوقعة عاجلة أم آجلة للبحث عن مكان القبر لأن الجيل الذي يأتي من بعدنا سيمحوا آثار قبورنا بأقدامه وهذه هي سنة الحياة منذ أن تواجد البشر على ظهر الأرض فنحن ندفن بعضنا بعضا بتنسيق مرتب من الله عزوجل وتمر السنوات والقرون وتندثر المعالم الشاهقة والقصور الفاخرة والبساتين الزاخرة وينشغل الناس في أمور حياتهم فيتناسون من كانوا يعيشون في تلك الديار من قبلهم ومهما حاول بعضهم البحث عن السابقين والعشق بحياتهم فإنهم لا ينجحون في نيل مرادهم فهم خلف السراب منقادون وتذهب قوة عشقهم هباءا منثورا .(30)

ولذا يلزم عدم الاغترار بالحياة الزائلة فمهما عاش الإنسان من السنوات الطويلة وحصل على السيادة والمكانة المرموقة بين شعوب العالم وسكن القصور المرهفة فإن نهايته ستكون بسيطة وحالته لا تختلف قدرا يسيرا عمن سبقوه من قبله في هذه الدنيا وستمحوا الرياح كل آثاره التي كانت معه.

خاتمة البحث

لم يترك الله سبحانه وتعالى الإنسان في هذه الحياة لكي يتخبط فيها كما يشاء بل أرسل به الرسل والمنهاج الذي يتكفل إصلاح نفسه وتربية ذاته وتخليصه من المتاهات والأوهام قوامه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من لدن حكيم عليم , وهو للمؤمنين طريق للسلامة وسبب للحماية وأمان لهم من الضياع والتردي , وهم يدركون أن صلاحهم وسعادتهم وطريق نجاحهم وسبل وصولهم إلى جنات رب العالمين يكمن في تدبر معاني القرآن الكريم والنيل من نفحاته والعمل بما يحويه ويقوم بكشف الدوافع والنوازع التي يتردد بينهما الإنسان وهو أمامها حر مختار حيث يمكنه بواسطة عقله اختيار السبيل الذي يريح جسده وروحه , ويلبي مطالبه وأهدافه ومطامحه في هذه الحياة ويضمن له الراحة والسلامة والسعادة الأبدية ويخلصه من جميع آلامه وأمراضه ومن كل انحرافاته السلوكية ويقوم بتطهيره من الأدناس والمعايب لكي يصبح أهلا للحصول على الخلافة في الأرض , والنفس الإنسانية هي المجال الواسع للتزكية التي يوجه إليها القرآن الكريم والنجاح في هذه التزكية نجاة للإنسان نفسه ووقاية لجهوده العلمية والعمرانية من الفشل في الدنيا والخسران في الآخرة , كما في قوله تعالى : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .(31)

ويستخلص من الاستعمالات المتكررة لكلمة النفس في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة أن النفس هي الوجود الحي للإنسان كله والتركيز على أعمال القلب والجسم هو مدار تزكية النفس في التربية الإسلامية وهي تتحقق في العبادات إذا أديت على وجهها الكامل والمطلوب , ولذا كرس الإسلام جهودا ضخمة للتغلغل في أعماق النفس الإنسانية لهدف تهذيبها وتطهيرها لتشكيل مجتمع يدعوا إلى الخير والفلاح للإنسانية جمعاء عن طريق الارتقاء الروحي الذي يمهد الطريق للنجاح في الامتحان الإلهي والحصول على العبودية الكاملة والخلافة الحقة في الأرض.

والهدف من التزكية الحصول على السعادة الروحية والعقلية والجسدية وهي جنة الأحلام التي ينشدها كل البشر ولكنها في حقيقة الأمر لا يمكن رؤيتها بالعين ولا قياسها بالكم ولا احتوائها بالخزائن والثروات , وهي موهبة تحتاج إلى رعاية كي لا تدمرها أمور عديدة وهي تحتاج إلى الصبر كي يمكن ملأ

النفس بالفرح والهدوء وهي كالسفن تحتاج دوما إلى الشواطئ لترسو عليها تتمثل في صفاء النفس وطمأنينة القلب وانشراح الصدر وراحة الضمير وهي ليست صفة بذاتها وإنما هي نتيجة للحياة الحسنة وحسن الظن بالله والإرادة المتفائلة والقلب المشرف بالخير والخيال العامر بالايمان بالله والقانع بقدره وحكمته وفضله وتدبيره, (32) فبعدما إدرك الشيخ محمد يار فريدي أن سعادة الروح والجسد تكمن في تزكية النفس الإنسانية حاول جاهدا في حياته العملية نقل مشاعر السعادة إلى مريده الذين كانوا من حوله واستخدم أسلوبه الأدبي الرفيع ليكون مصدرا للنور الضياء تأتي الأجيال من بعده فتستخرج الدرر الثمينة من أصدافها وهي تمنح لهم العلاج الشافي لهمومهم وتزرع فيهم القناعة والشكروالصبر والأمل مهما تغيرت الأحوال وتفاقمت الفتن والمصائب , والذين يرزقون نعمة السعادة والشعور بالغبطة والسرور فإنهم يسخرون من الأحداث وإن برقت ورعدت ويبتسمون للحياة وإن كشرت عن أنيابها ويفلسفون الألم فإذا هو يستحيل عندهم إلى نعمة تستحق الشكر على حين عند غيرهم مصيبة تستوجب الصراخ والشكوى كما هو الحال للإنسانية في عصرنا الحاضر حيث نسمع عن الفيروس (كورونا_كووید -19) ليل نهار وتحاول جميع وسائل الإعلام نشر الخوف والرعب في قلوب الناس لتحقيق مصالحهم الاستعمارية وتمهيد الطريق لاستغلال الشعوب وسلب الحريات وتضييع الحقوق ونزع الكرامات , ولذا يلزم للمؤمن تجديد إيمانه بربه وتصحيح عقيدته بالتدبر لآيات القرآن الكريم وهدي النبي الشريف ونهج الصحابة والأولياء والمصلحين , وليعلم الجميع أن الغمة السائدة ستزول قريبا إن شاء الله وسيرزق الصابرون المحتسبون أجورهم عند الله كاملة وسيصيب الغافلون عن ربهم والمنقادون لشهواتهم والمصدقون لكل ما يفوه به أعدائهم الخذلان والخسران , وهكذا يجد كل من ربط نفسه بالله السعادة في الدنيا فلا يخش غما ولا يشك هما ولا يصيبه القلق ما دام أمره متعلقا بالله عزوجل يتلو آيات ربه ويقنع بقدره ويطلب منه الخير والفلاح وحسن الخاتمة.

وما أعظم ما تمنحنا الآيات القرآنية الجرعات الايمانية الكافية لما نعاني منه هذه الايام وفيها السبيل الوحيد للفلاح الحقيقي والسعادة الأبدية والخلاص من الهموم المستقبلية والأحزان السالفة

حيث قال الله عزوجل: (قد أفلح من تزكي وذكر اسم ربه فصلي بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى)(33) فالتزكية هي المفتاح الوحيد للنجاح والحصول عليها ليس هدف يسيريدركه الجميع لوجود العوارض المانعة منها حب الدنيا والخوف من الموت وعدم الاستعداد ليوم الميعاد , لكن الفوز الأبدي مضمون لكل من أخلص النية والعمل للآخرة وهذه النتيجة الحتمية ليست جديدة بل ورد ذكرها في صحف إبراهيم وموسى ولا تبديل لسنة الله في خلقة.

المصادر والمراجع

1- البقرة:151

2- النساء:97

3- سعيد حوي , المستخلص في تزكية الأنفس , دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع , الطبعة الرابعة, 1988م, ص:135 .

4- د/محمد عبدالله دراز , دستور الأخلاق في القرآن ,موسسة الرسالة , بيروت, الطبعة الرابعة, 1982م, ص:350.

5- النازعات:19.

6- الليل: 6.

7- أمين أحسن إصلاحي , تزكية نفس , ملك برادرز , مكتبه جديد , لاهور, 1961, ص :34-41.

8- الرعد:28.

9- الصوفية: قد اشتق هذا الاسم من لبس الصوف والطريقة التي تعرف بالتصوف تقوم بالتركيز على تحقيق أركان الدين الإسلامي الثلاثة: الإسلام والايمان والإحسان فعندما يترك الإنسان العيش الرغد واللباس الفاخرويقوم بإذلال نفسه فإنه يقترب من الله بعدما يدوام على الأذكار والتسبيحات بالأسلوب المتعين لطريقته التي ينتمي إليها , والهدف من كل ذلك تزكية النفوس وتصفية الأخلاق والاعراض عن لذات الدنيا والاهتمام بالله عزوجل والاستعداد باللقاء به . للمزيد تصفح : أبو حامد الغزالي , معارج القدس في مدارج معرفة النفس , منشورات دار الآفاق الجديدة , بيروت , لبنان , الطبعة الخامسة, 1981م, ص: 44-52.

10- محمد الفقي , التصوف حياة وسلوك , الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية, 1979م, ص:26-27.

11- الحافظ الإمام ابي بكر عبدالله بن محمد , مكارم الأخلاق , تحقيق: محمد عبدالقادر احمد , دارالكتب العلمية بيروت لبنان, 1996م, ص: 82.

12- سيد أبو الأعلى المودودي , إنسان كي حقيقت قرآن كي روشني مين , ترتيب وتدوين : غلام محي الدين أعوان , إداره ترجمان القرآن , لاهور, ص:114-115.

13- (كرهي اختيار خان) منطقة تابعة لولاية بهاولبور التي كانت حينها تضم العشرات من العلماء الأفاضل وفيها الجامعة العباسية التي كانت تسمى مدرسة (صدر دينيات) وضع حجر اساسها حاكم ولاية بهاولبور سنة 1879م ويقع بالقرب منها مدينة (اوج شريف) للمزيد تصفح: مسعود الحسن شهاب دهلوي , أولياء بهاولبور , أردو أكيدمي , 1986م , ص:28-32.

14- بشير حسين ناظم , عبدالنبي المختار محمد يار فريدي أهل دانش كي نظر مين , قطب برنتر لاهور, ص: 38. والدكتور نصر الله خان ناصر , سرائيكي شاعري دا ارتقاء , جهوك برنتر ملتان, 2007م , ص: 71.

15- د/ محمد اسحاق قريشي , بهار جشت , قطب برنتر لاهور, 2009م, ص:38-42.

16- د/ ألطاف حسين , حضرت خواجه محمد يار فريدي شخصيت وكلام , بحث نشر في مجلة السعيد ص:42. وسيد عبدالرحمن بخاري , بيكر عرفان واكهي , خواجه محمد يار أهل دانش كي نظر مين , ص:51-52.

17- حضرت خواجه محمد يار فريدي , ديوان محمدي , جهوك ببلشرز , ملتان, 2016م , ص:139.

18- المصدر السابق , ص:139.

19- المصدر السابق , ص:139

20- حافظ مومن خان عثماني , نفساني خواهشات اور ان كـ نقصانات ,دار الكتاب , لاهور, اشاعت دوم, 2002م , ص: 34-38

21- أحمد جهان الفورتيه , القرآن أصل التربية وعلم النفس , دار المعارف , القاهرة , ص: 253-286.

22- فاطر:28.

23- حضرت خواجه محمد يار فريدي , ديوان محمدي , ص:151.

24- محمد عثمان نجاتي , القرآن وعلم النفس ,ترجمة : محمد مسعود عبده القيصل ناشران, لاهور, ص: 88-96.

25- حضرت خواجه محمد يار فريدي , ديوان محمدي , ص:160.
26- المصدر السابق , ص:56.
27- أمين أحسن إصلاحي , تزكية نفس, ص 44-47.
28- د/محمد عبدالله دراز , دستور الأخلاق في القرآن , ص 225.
29- حضرت خواجه محمد يار فريدي , ديوان محمدي , ص: 74.
30- سيد أبو الأعلى المودودي , إنسان كي حقيقت قرآن كي روشني مين , ترتيب وتدوين : غلام محي الدين أعوان , ص: 118-131.
31- محمد موسى خان , اسلامي فلسفة حيات, اداره اسلاميات , لاهور, 1994م, ص:135-141.
32- احمد زكي تفاحة , الإسلام عقيدة وشريعة , دار الكتاب اللبناني, بيروت لبنان , الطبعة الأولى, 1979م, ص:101-103.
33- الاعلى :13-19